الواقـــع الثقافـــي لمملكـــة غرناطـــة الأندلسيـــة
من خلال كتاب الإحاطة للسان الدين ابن الخطيب «رحمه الله»

د. عبد الله بن علي بن أحمد القرني •

ملخـــص

تناول البحث الواقع الثقافي لمملكة غرناطة الأندلسية من خلال كتاب الإحاطة للسان الدين ابن الخطيب –رحمه الله ويهدف إلى التعريف بمملكة غرناطة. التعرف على دورها في الحضارة الإسلامية. التعرف على الحالة الثقافية، والحضارية لهذه المملكة الغالية علينا. وتتمثل أهمية البحث في دراسة مملكة غرناطة والحالة الثقافية والحضارية لها. ودراسة العوامل الثقافية التي أسهمت في نجاح مملكة غرناطة. والتحديات الثقافية التي واجهتها مملكة غرناطة. استخدم الباحث المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي والمنهج الاستقرائي،ومن أهم النتائج:تعتبر مملكة غرناطة من أعظم المدن الشاهدة على رقي حضارة المسلمين. يُعتبر كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة من أجل كتب ابن الخطيب، فهو يعتبر مرجعاً ثقافيا وأدبيا، وتاريخياً عن تلك المملكة. كان لموقع غرناطة الجغرافي، وما تميزت به من المناخ المعتدل،والأرض الطيبة، الأثر في استقرار كثير من الأسر العلمية بها: وأهم التوصيات: الاهتمام بإبراز الحضارة الأندلسية عموماً، وغرناطة على وجه الخصوص.إقامة المؤتمرات التي تكشف عن العطاء العلمي، والأدبي الذي قدمه العلامة لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله وغيرها من علماء الأندلس.

• الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية – بكلية الدعوة وأصول الدين – جامعة أم القرى – السعودية.

Abstract

The research dealt with the cultural reality of the Andalusia Kingdom of Granada through the book Al-Ihtaaat by Lisan Al-Din Bin Al-Khatib - may God have mercy on him - and aims to introduce the Kingdom of Granada. Learn about its role in Islamic civilization. Learn about the cultural and civilization situation of this dear kingdom to us. The importance of the research is to study the Kingdom of Granada and its cultural and civilization situation. And study the cultural factors that contributed to the success of the Kingdom of Granada. And the cultural challenges faced by the Kingdom of Granada. The researcher used the historical method, the descriptive analytical method, and the inductive method, and among the most important results: The Kingdom of Granada is considered one of the greatest cities witnessing the advancement of Muslim civilization. The book Al-Ihtaaat fi Akhbar Granada is considered one of the books of Bin Al-Khatib, as it is considered a cultural, literary, and historical reference on that kingdom. Granada>s geographical location, and its moderate climate and good land, had an impact on the stability of many scientific families in it: The most important recommendations: Paying attention to highlighting the Andalusia civilization in general, and Granada in particular. Holding conferences that reveal the scientific and literary tender presented by the scholar Lisan Al-Din Bin Al-Khatib, may God have mercy on him - and other scholars of Andalusia.

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، له النعمة، وله الفضل علينا جعل لنا الأرض ذلولاً " وخص بعض أقطارها بمزايا تدعو إلى الاغتباط، والاعتمار، وتحث على السكون، والاستقرار، متبوأً فسيحاً، وهواءً صحيحاً، وماءً نميراً، وامتناعاً شهيراً، ورزقاً رغداً"[1]، والصلاة، والسلام على أشرف أنبيائه، "الذي أنجز الله به من نصر دينه الحق موعداً، حتى بلغت دعوته ما زُوى له من المغرب الأقصى، فرفعت لكل هضبة معلماً، وبنت بكل هضبة مسجداً"[2]، ورضي الله عن صحابته،وآل بيته، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فتُعتبر مملكة غرناطة العريقة، والتي استمرت أربعة ما يقرب من قرون أطول ممالك الأندلس الإسلامية، وآخرها حملاً لمشاعل الثقافة، والحضارة الإسلامية، وهي شاهدة إلى يومنا هذا على رُقي الحضارة الإسلامية، وعلو قدرها الإنساني.

وقد زخرت المصنفات التاريخية عن الأندلس ببيان مفصل عن تميزها الفريد في الثقافة والحضارة الذي كانت مملكة غرناطة من أجمل صورها.

ومن الأعلام الأندلسيين المتأخرين المشهورين العلامة: لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي- رحمه الله -، والذي تولى الوزارة، والسفارة، وكان عالماً مؤرخاً وأديباً، وسياسياً مثقفاً، وصاحب شهرة وتأثير في أهل عصره ،وقد حوى كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة جزءً نفيساً عن تاريخ مملكة غرناطة،وأهلها وأعلامها، ففي سطورها ضياء الحضارة الإسلامية، والمعارف التاريخية التي تسابق فيها أهل غرناطة، مع البيان الواضح لفضائل مدارسها العلمية،وميادينها المعرفية. فرغبت في بيان الحالة الثقافية و، الحضارية لهذه المملكة الغالية علينا،والتي كان لها الأثر في استمرار عطائها، وصمودها أمام الهجمات التي توالت عليها.

(١) مقدمة لسان الدين ابن الخطيب لكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: لمحمد بن عبدالله عنان، طبعة مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ١/٧٩.

(٢) المرجع السابق: ١/٨٠.

مشكلة البحث:

تتبلور مشكلة البحث في السؤال الرئيسي ما الواقع الثقافي لمملكة غرناطة الأندلسية من خلال كتاب الإحاطة للسان الدين ابن الخطيب- رحمه الله – وتتفرع منه الأسئلة الآتية :

١/ ما هي العوامل الثقافية التي أسهمت في نجاح مملكة غرناطة؟

٢/ ما هي التحديات الثقافية التي واجهتها مملكة غرناطة؟

أهداف البحث :

١/ التعريف بمملكة غرناطة .

٢/ التعرف على دورها في الحضارة الإسلامية .

٣/ التعرف على الحالة الثقافية، والحضارية لهذه المملكة الغالية علينا.

أهمية البحث:

١/ دراسة مملكة غرناطة والحالة الثقافية والحضارية لها .

٢/ دراسة العوامل الثقافية التي أسهمت في نجاح مملكة غرناطة.

٣/ دراسة التحديات الثقافية التي واجهتها مملكة غرناطة .

منهج البحث :

استخدم الباحث المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي والمنهج الاستقرائي .

خطة البحث :

ينقسم البحث إلى التمهيد والمبحث الأول :العوامل الثقافية التي أسهمت في نجاح مملكة غرناطة المبحث الثاني : التحديات الثقافية التي واجهتها مملكة غرناطة والخاتمة .

التمهيد

أولاً: التعريف بمملكة غرناطة[١]:

قال ابن الخطيب– رحمه الله –: " يقال غَرّناطة،ويقال إغرناطة، وكلاهما أعجمي"[٢]، ومعناه بالإسبانية الرمانة، وهي من أعظم مدن الأندلس في الجنوب الأندلسي، وكانت تُدعى في القديم بقَسطيلّية، ومدينة غرناطة هي عاصمة المملكة التي استقلت منذ القرن الخامس برئيسها، وكانت صغيرة مقارنة بجارتها إلبيرة[٣]، فما لبثت أن صارت أعظم منها، وأكبر.

وانفصلت مملكة غرناطة عن بقية أقاليم الأندلس بعد زوال حكم الأمويين عن الأندلس والأحداث التي جرت في بداية القرن الخامس، وكان أزهى عصورها في عهد ملوك بني نصر الذين حكموا الأندلس من عام: ٦٣٥هـ. حتى انتهاء حكم المسلمين في الأندلس عام: ٨٩٧هـ.

واستقر بها الكثير من الأدباء ، والعلماء ، والزهاد، ونزح إليها المسلمون بعد تهاوي المدن الأندلسية على أيدي النصارى منذ أواخر القرن الخامس الهجري، وكانت إلبيرة مقر حكمها في أيام الأندلس الأولى، وأرض أهل الجاه ، والعلم من أعلامها حتى قال ابن حيان– رحمه الله – : "فكان يجتمع بباب المسجد الجامع من إلبيرة خمسون حَكَمَةَ – وهي قصبة توضع في فم الدابة لتذييلها– كلها من فضة لكثرة الأشراف بها، ويدل على ذلك آثارها الخالدة، وأعلامها الماثلة، كطلل مسجدها الجامع، الذي تحامل استطالة البِلى، كسِلت عن طمس معالمه أكُف الردى، إلى بلوغ ما فُسح له من المدى"[٤].

(١) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٩١. والآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤هـ، ص ١٦٠-١٨٣. والتاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، د. عبدالرحمن الحجي، دار القلم،الطبعة الثامنة ١٤٣٥هـ، ص٥٤٩-٥٥٨.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٩١.

(٣) إلبيرة: لألف فيها ألف قطع، وبعضهم يقول يلبيرة، ولبيرة: وهي كورة كبيرة من الأندلس، بينها وبين قرطبة تسعون ميلا، وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار، وفيها عدّة مدن، منها: قسطيلية وغرناطة وغيرهما، وهي من كور الأندلس، التي نزلها جند دمشق من العرب. انظر: معجم البلدان، لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر،الطبعة: الثانية،١٩٩٥ م، ١/ ٢٤٤. وصفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحِميرى، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الثانية١٤٠٨ هـ، ١/ ٢٩.

(٤) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٩٢.

وقد حوت مملكة غرناطة مع حاضرتها مدينة غرناطة مائة وأربعين قرية بها أكثر من خمسين جامعاً تخطب في الجمعة، ذكرها بأسمائها ابن الخطيب- رحمه الله -[1].

وتحيط بها ممالك النصارى من جنباتها الثلاث إلا ما كان من الجنوب فبينها،وبين عدوة المغرب البحر المتوسط، وهي معتدلة الهواء، تُشبه ببلاد الشام في ذلك.

أما مذهب أهلها في الاعتقاد فهم على مذهب أهل السنة والجماعة، وفي الفقه على مذهب الإمام مالك- رحمه الله -، مع وجود يسير لمذهب الظاهرية عند بعض أعلامها.

أما عن وصف أهلها: "فجسوم أهلها لصحة الهواء صُلبة، وسحانهم خشنة، وهُضُومهم قوية، ونفوسهم لمكان الحر الغريزي جَرِيّة"[2]، "وصورهم حسنة، وأنوفهم معتدلة غير حادة، وشعورهم سود مُرّسلة، وقدودهم متوسطة معتدلة إلى القِصَر، وألوانهم زُهر مُشربة بحمرة، وألسنتهم فصيحة عربية، وتغلب عليهم الإمالة، وأخلاقهم أبية في معاني المنازعات، وأنسابهم عربية، وفيهم من البربر، والمهاجرة كثير"[3].

أما عن لباسهم فهو من الكتن، والقطن، والحرير المصبوغ المتعدد الألوان، والعمائم تقل في زيهم إلا لشيوخهم،وقضاتهم، وعلمائهم، والجند العربي منهم.

أما عن نسائهم فقال ابن الخطيب- رحمه الله -: "وحريمهم حريم جميل، موصوف بالسحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونُبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن، وقد بلغن من التفنن في الزينة، بهذا العهد، والمظاهرة بين المصبغات، والتنفيس

(١) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ١٢٦-١٣٢.
(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/٩٦-٩٧.
(٣) المرجع السابق، ١/ ١٣٤.

بالذهبيات والديباجيات والتماجن في أشكال الحُلي، إلى الغاية نسأ ل الله أن يُغضَّ عنهنّ فيها عين الدهر، ويكفكف الخطب، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة، وأن يُعامل جميع من بها بستره، ولا يسلبهم لطفه بعزته وقدرته"(١).

وقد كان أهلها لا يرون بلداً صنواً لبلدتهم في الفضائل والمزايا إلا ما كان من مكة المكرمة، والمدينة النبوية، فهي كما قالها أحد أعلامها،وأقره على ذلك ابن الخطيب– رحمه الله –: " ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعُباد، وما فوقه مرابط جهاد، ومعاقد ألوية في سبيل الله"(٢).

وبقيت غرناطة شامخة مستقلة منذ عهد استقلالها لتكون مملكة الأندلس الأخيرة التي تُحيط بهما مالك النصارى والتي تحاربهم وتحاصرهم، وهي شامخة أبية تقاوم وحدها أحياناً، وبعون من جارها في المغرب حيناً آخر، ليبقى شعار بني الأحمر " لا غالب إلا الله " حقاً باقياً حتى يومنا هذا ، فتحدى بعد أن زال أهلها زوال حضارتهم وتاريخهم.

"ولقد اعُتبر من الغرائب استمرارُ مملكة غرناطة هذه المدة، رغم صغرها وقلة عدد سكانها، ومحافظة على ما بقي للمسلمين من سلطان سياسي، ووجود حضاري معطاء"(٣).

وتشبه غرناطة من حيث الشكل العام قرطبة في كونها تقع بين مجرى مائي يقسمها إلى قسمين، وتفترق عنها بأنها مسورة بأكثر من سور ولها العديد من الأبواب والقلاع العالية، وفي وسطها يقع الجامع والأسواق ودار الإمارة، ومن جامعها ينتشر العلم، ويعقد الأمير ألوية جيشه، ويقوم فيه القاضي للقضاء بين الناس(٤)..

(١) المرجع السابق،١/ ١٣٩.
(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٢٥٥ وانظر: ١/٢٥٨.
(٣) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، د. عبدالرحمن علي الحجي، دار القلم، الطبعة الثامنة١٤٣٥هـ، ص٥٥٨.
(٤) انظر: التخطيط العمراني لمدن الأندلس الإسلامية، د. محمد عبدالله الحماد، من أعمال: ندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث، طبعة: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الطبعة الأولى١٤١٧هـ، ص ١٥٦-١٥٨.

ثانياً: التعريف بابن الخطيب:

هو الفيلسوف، والطبيب، والكاتب، والشاعر الرفيع، والمؤرخ البارع، ذو الوزارتين، والسفارة في الدولة النصرية، الثاقب النظر، القويالإدراك، العميق المعارف، وهو من أعظم علماء الاندلس وأدبائها، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، والسلماني نسبة إلى سلمان، وهو حي من مراد من عرب اليمن القحطانية.

واستقر سلف ابن الخطيب بعد مقدمهم من الشام في قرطبة، ثم غادروا قرطبة بعد حادثة الربض المشهورة سنة ٢٠٢هـ، فارتحلوا إلى طليطلة زهاء قرن ونصف، حتى إذا بدأت القلاقل تُحيط بها ارتحلوا إلى مدينة لوشة غربي مدينة غرناطة مسقط رأس ابن الخطيب[١].

ولد ابن الخطيب بمدينة لوشة في الخامس والعشرين من رجب سنة ٧١٣هـ (١٦ نوفمبر سنة ١٣١٣م) ونشأ في بيت علم،وفضل، وجاه، فكان جده عالماً ورعاً، ثم كان والده كذلك،وانتقل إلى غرناطة، وعمل في خدمة سلاطينها، وأُسبغ عليه لقب الوزارة.

فنشأ ابن الخطيب في غرناطة، وهي يومئذ أعظم مركز حضاري إسلامي في الغرب الإسلامي، وبها أكابر العلماء، والأدباء، وعلماء الطب، والأدب، واللغة التي تعلّم عليهم ابن الخطيب.

وبعد وفاة والده تولى مكانه في ديوان الإنشاء، وكان كاتب سر السلطان أبي الحجاج يوسف ومقرباً منه، فعظمت منزلته، وفيها صدرت بقلم ابن الخطيب العديد من الرسائل الملوكية، "فقلدني السلطان سره، ولما يستكمل الشباب، ويجتمع السن،

(١) انظر في ترجمة ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة فقد ترجم لنفسه، ٤/٤٣٩-٦٣٧. وهي ترجمة طويلة. وانظر:ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، للإمام: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، دار الفكر، الطبعة: الثانية١٤٠٨ هـ، ٧/ ٤٤٠-٤٥٦. ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني - دار صادر- بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٧م، القسم الثاني كاملاً، ٥/١٨١.ومصادر في تاريخ المغرب والأندس، أ.د. عبدالواحدذنون طه، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى٢٠١١م،١٣-١٤.

معززة بالقيادة، ورسوم الوزارة، واستعملني في السفارة إلى الملوك، واستنابني بدار ملكه، ورمى إلى يدي بخاتمه، وسيفه، وائتمني على صنوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه"(١).

فكان في مكان عالٍ لدى ملوك الدولة النصرية، إلا أنه لم يعدم المستهدفين لمكانته المشغبين له، الطامعين في النيل منه، حتى تمّ لهم ذلك، ورحل ابن الخطيب إلى المغرب بعد أن طلب من سلطانه إقالته للذهاب للحج فلم يجبه لذلك، فتحين الفرصة، وانتقل للمغرب، وأرسل لسلطانه رسالة اعتذار، وتعطف، لكن ذلك لم ينجه من الغوائل، فلاحقه طالبي الوقيعة فيه، حتى قُتل وأُحرق بعض جسده– رحمه الله– في ربيع الأول أو الثاني سنة ٧٧٦هـ بقرب مدينة فاس.

وقد كتب ابن الخطيب ترجمته لنفسه في كتابه الإحاطة، وقص عن رحلاته، وتنقلاته المضطربة كاضطراب أرضه الأندلس، كما دون سيرته معاصره وصنوه ابن خلدون في تاريخه، ووصف مصرعه المؤلم لعالم كبير مثله(٢).

فكان ابن خطيب مع ما امتلكه من موهبة في اللغة والأدب، يُعد موسوعة علمية نادرة، وهو بحق أعظم كاتب ومفكر سياسي أنجبته الأندلس في القرن الثامن الهجري(٣).

ثالثاً: التعريف بكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة:

يُعتبر كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة من أجل كتب ابن الخطيب، وأشهرها، وله صلة بمسماه فقد حاول الاستقصاء عن كل من دخل بلدته غرناطة من أوائل زمن الفتح حتى عصره، ممن عُرف بقدر من الشرف، والمكانة، والسياسة، والأدب، والعلوم، والجهاد، والعبادة، كما أفاض في الحديث عن كل ما يتعلق بها من المساكن، ووصف أهلها، ومن حكمها، ودخلها.

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٤/٤٤٣.
(٢) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤/٤٣٩-٦٣٧.وانظر:ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لابن خلدون، ٧/ ٤٥٢-٤٥٨.
(٣) انظر:مصادر في تاريخ المغرب والأندلس، أ.د. عبدالواحدذنون طه، ص١٤. وانظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، عبدة بن عبدالرحمن رضا كُحيلة، الطبعة الأولى١٤١٨هـ، ص٢٧٢.

كما تميز هذا السفر بأنه ينقل عن عدة مؤلفات سبقته، والتي تحدثت عن تاريخ الأندلس وعلمائها، وبعضها في خبر المفقود حتى الآن.

فهو من أشهر كتبه، وأضخمها، وقد حوى عن تاريخ غرناطة، وتأسيسها، وجغرافيتها، وقلاعها، ومناخها، وصفة أهلها، وعاداتهم، وسيرة ملوكها، وأشرافها،فـ"هو ليس تاريخاً لغرناطة بالمعنى المحدد، ولكنه عبارة عن موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة الأندلسية الخالدة، من الأخبار و،الأوصاف والمعالم"(١).

وكأن كتابته عن غرناطة صِداق الحب والهيام بالوطن الذي ولد فيه ودرج ابن الخطيب، والذي قال عنه في ذلك" فلست ببدع ممن فُتن بحب وطن، ولا بأول من شاقه منزل فألقى بالعطن، فحب الوطن معجون بطينة صاحبه، وطرفه يغري بإتمام محاسنه"(٢)، وهي مع ذلك حاضرة الأندلس في عهده، وعاصمتها الإسلامية، وموطن العلم،وساحة الجهاد، " فكم ضمت من رئيس يتقي الصباح هجومه، وعالم يبرز للفتون فيطيعه عاصيها،وعارف بالله قد وسم السجود جبينه، وأشعث أغبر لو أقسم على الله لأبر يمينه، وبليغ قد أذعنت لبراعة خطه وشيجه الخط"(٣).

ولعلنا نظهر طريقة ابن الخطيب في كتابه الإحاطة، وما تميز به فيما يلي:

أ- أنه تناول كل شيء عن غرناطة ومن ذلك: وصف جغرافياتها، وموقعها، وما يحيط بها من المروج،والجبال، وتاريخها مذ نزل بها العرب في أوائل الفتح، ومن دخلها، وأخبار ملوكها ووزرائها بنوع من التفصيل، مع ذكر لأحداثها المؤثرة.

ب- أنه تضمن بالتفاصيل أخبار ملوك الدولة النصرية، وملوكها المتعاقبين، ووزرائها، وشعرائها، بتراجم فياضة لا تكاد توجد في سفر آخر.

(١) مقدمة الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣/١.
(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، للعلامة لسان الدين ابن الخطيب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ، ٨٥/١.
(٣) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، للعلامة لسان الدين ابن الخطيب، ٨٤/١.

ت- أن ابن الخطيب شآم الناس، وتعرف على أخبارهم، وسمع العديد من القصص والأحداث من أفواه ذويها أو من أهل بيوتهم، فكانت نقلاً متصلاً لأخبار مهمة في تاريخ غرناطة.

ث- أنه اعتنى عناية خاصة بترجمة أكابر العلماء، والكتاب،والشعراء من معاصريه سواء في الأندلس أو المغرب، وأورد كثيراً من شعرهم،ونثرهم، ومراسلاته معهم، وقد ضم كتابه من هذه التراجم زهاء الخمسمائة علم منهم.

ج- أنه التزم في كتابه الترتيب الأبجدي لا التاريخي، وقسم كلً جنس من الأسماء إلى أصناف تراتيبه، فيجعل الملوك،والأمراء طبقة، والفضلاء،والعمال طبقة، والمحدثين طبقة، ونحو ذلك، فأعطى الأسبقية لأهل السياسة، والوزارة قبل أصحاب العلم،والعبادة، ولذوي العلم،والأدب قبل الزهاد،وأصحاب التصوف؛ "ليكون الابتداء بالملك، والاختتام بالمسك، ولينتظم الجميع انتظام السلك"(١).

ح- واعتمد على مصنفات سبقته عن التاريخ الأندلسي،وعن غرناطة خاصةً كالمقتبس لابن حيان، وتاريخ مالقة لابن عساكر، وعلماء البيرة لأبي القاسم الغافقي، ومن أبرز موارده، مؤلفاته الأخرى مثل: كتاب: "عائد الصلة" و"طرفة العصر في دولة بني نصر" و" والملحة البدرية في الدولة النصرية، والتاج المحلى في مساجلة القدح المعلى، " وينقل ابن الخطيب في بعض كتبه من البعض الآخر كثيراً من الشذور، وهذه ظاهرة ملحوظة في كثير من مؤلفاته"(٢).

خ- وتشكلت ترجمته من وحدات لا يكاد يحيد عنها، وأبان عنها بقوله" وذهبت إلى أن أذكر الرجل،ونسبه، وأصالته،وحسبه، ومولده،وبلده، ومذهبه، وأحواله، والفن الذي دعا إلى ذكره أو جلبه، ومشيخته إن كان ممن قيد علماً أو كتبه، ومآثره إن كان ممن وصل الفضل بسببه، وشعره إن كان شاعراً أو أدبه،

(١) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، للعلامة لسان الدين ابن الخطيب، ٨٧/١. وانظر: ابن الخطيب في كتابة الترجمة، عبد الله الترغي المرابط، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان – جامعة عبدالملك السعدي، العدد ٢-١٩٨٧م، ص٢١٥.

(٢) مقدمة الإحاطة في أخبار غرناطة، لمحمد بن عبدالله عنان، ٥/١.

وتصانيفه إن كان ممن ألف في فن أو هذبه، ومحنته إن كان ممن بزه الدهر أو سلبه، ثم وفاته أو منقلبه، إذ استرجع الله من منحه حياته، وما وهبه"(١).

د- أنه استغرق في تأليف كتابه سنوات قاربت العشر، واطلع فيها على وثائق قيمةعن تاريخ الدولة النصرية لمكانه من الوزارة أكثر من عشر سنوات.

ذ- ما أفاض في سفره القيم من تعليقاته النفيسة في مواضيع شتى، فلم يكتفِ بالترجمة المجردة للأعلام، فقد قال في ترجمة أحد الأعلام،وما يصاب به -مع ذكائه وعلو مرتبته العلمية- من الغفلة والضعف في الحجاج عن نفسه، وبيان حجته على خصمه، فيعلق على ذلك: "قلتُ: وفي موجودات الله تعالى عِبرٌ، وأغربها عالم الإنسان؛ لما جُبلوا عليه من الأهواء المختلفة، الطباع المشتتة، والقصور عن فهم أقرب الأشياء مع الإحاطة بالغوامض"(٢).

ر- الأسلوب الشيق الأدبي الذي تميز به كتابه؛ ليكون عملاً أدبياً رفيعاً، اختص به عن الكثير من كتب الأخبار عن البلدان،والأعلام، فاعتمد على الصياغة المسجوعة في العديد من المواضع، والتشبيهات البديعة، فيقول عن بعض من يترجم له: " له أدب كالروض باكرته الغمائم، والزهر تفتحت عنه الكمائم، رفع منه راية خافقة، وأقام له سوقاً نافقة.."(٣)، وقال عن آخر: " طلع شهاباً ثاقباً، وأصبح بشعره للشعري صاقباً، فنجم وبرع، وتمم المعاني واخترع.. نبه في عصره شرف البيان بعد الكرى، وانتدب إلى تجديد ذلك البساط وانبرى"(٤).

فكانت له في هذا الكتاب توقيعاته الخاصة، ومن ذلك قوله" " وإذا صحب العمل صدق النية أشرقت من التوفيق كل ثنية، وطلعت من السداد كل غرة سنية"(٥).

(١) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/٨٧-٨٨. وانظر: ابن الخطيب في كتابة الترجمة، عبد الله الترغي المرابط، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان – جامعة عبدالملك السعدي، العدد ٢-١٩٨٧م ، ص٢١٨.
(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٢٠٠-٢٠١.
(٣) المرجع السابق،١٢/٣.
(٤) المرجع السابق، ١/٣٤٥. وانظر: لسان الدين بن الخطيب الناقد في كتاب الإحاطة، مجلة المورد العدد الثالث لسنة ١٩٩٩م، ص ٦٢.
(٥) المرجع السابق ١/ ٨٥.

وقوله عن بعض من حكم غرناطة في فترات اضطرابات الأندلس بعد زوال الدولة الأموية عنها، "أحكم التدابير، والجولة تسعده، والمقادير تنجده"(١). وقوله عن بعض المشاهد في قتال النصارى، والتي انتصر فيها أهل غرناطة: " وعظم الفتح، وبَهَرَ الصنع، وطار الذكر، وثاب السعد"(٢). وقوله عن خطيب جامع كان يخاطب الناس في خطبته على البديهة، فقال عنه بعد إحدى خطبه: " وكان ذلك مما استدل به على قوة جَنانه، وانقياد لسانه لبيانه"(٣).

(١) المرجع السابق ١/ ٥١٤.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٣٨٩.
(٣) الإحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٣/ ١٣٨.

المبحث الأول

العوامل الثقافية التي أسهمت في نجاح مملكة غرناطة

ولما كان لمملكة غرناطة السبق الحضاري في العديد من العلوم، واستمرار ثباتها في بلاد الأندلس دعا ذلك إلى التعرف على الجوانب الثقافية التي كان لها الأثر في استقامة أحوالها، واستمرا عطائها، ولعلنا نبينها في النقاط التالية:

الموقع الذي تميزت به مملكة غرناطة:

كان لموقعها الجغرافي،وما تميزت به من المناخ المعتدل،والأرض الطيبة أرض استقرار لكثير من الأسر العلمية، حيث جعلها الله – كما يقول ابن الخطيب–: " ثغر الإسلام ومتبوأ العرب الأعلام، قَبِيل رسوله عليه – أفضل الصلاة وأزكى السلام –، وما خصها به من اعتدال الأقطار، وجريان الأنهار، وانفساح الاعتمار، والتفاف الأشجار"(١). حتى مدحها ابن الخطيب بقوله:

بلد يحفُّ به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصمُ غادةٍ ومن الجسور المحكمات سوارهُ(٢)

فوصفت بأجمل الصفات التي تدل على طيب مناخها وتربتها، والتفاف الأشجار عليها، وجمال جناتها،وأنهارها، وعذوبة مائها، وزينة رياضها، وما سوى غير هذه الجهة فغير لا حق بهذه الرتبة، مما مُعَوَّلُه على محض الفائدة، وصريح العائدة"(٣).

فوفد إليها الكثير من العلماء من بلدان الأندلس في أول عهدها، وبعد انحسار حكم المسلمين عن كثير من نواحي الأندلس في شمالها، وشرقها،وغربها إلى حضارة الإسلام في الأندلس غرناطة، واستقروا بها، فكثيراً ما يذكر ابن الخطيب عن بعض من ترجم لهم،وأصله من شرق الأندلس أو غربها، أو يقول وجده من قرطبة أو إشبيلية.

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٨٤.
(٢) المرجع السابق،١/ ١١٥.
(٣) المرجع السابق، ١/ ١٢٤.

وقد ذكر ابن الخطيب كذلك العديد من تراجم النساء ذوات العلم، والأدب والمشاركة في الفنون، والآتي كان لهن الأثر في التميز العلمي الذي نعمت به غرناطة لكن يلاحظ أن ذلك قليل جداً[١].

اهتمام ملوكها ووزرائها بالعلوم، وتقريبهم للعلماء:

فقد أثنى ابن الخطيب على بلده غرناطة أنها مقام للعلماء، والأدباء، والملوك من ذوي العظمة والسؤدد، فقال عن غرناطة: "فكم ضمت جدرانها من رئيس يتقي الصبح هجومه، ويتخوف الليل طروقه ووجومه، ويفتقر الغيثُ لنوائله الممنوحة سجومه، وعالم يبرز للفنون فيطيعها عاصيها، ويدعو بالمشكلات فيأخذ بنواصيها، وعالم بالله قد وسم السجود جبينه، وأشعث أغبر لو أقسم على الله لأبر يمينه، وبليغ قد أذعنت لبراعة خطه وشيجة الخطب.."[٢].

وكان العديد من ملوكها يقرب في مرتبة الوزارة أعلام أهل غرناطة المبرزين في العلوم،والآداب؛ ليكون أهل سره، وحملة أمانته[٣].

بل امتد الحال من الخير أن سارع ملوك بني نصر في دعوة الأعلام الأندلسيين من البلدات الأندلسية الأخرى للوفود على غرناطة، والتعليم بها[٤].

وحين دخل العلامة ابن خلدون الأندلس في أوائل شهر ربيع الأول من عام أربعةوستينوأربعمائة، "أنزله السلطان،وأركبخاصتهلتلقيه،وأكرموفادته،وخلع عليه، وأجلسه بمجلس خاص، ولم يدخر عنه براً ومؤاكلة، ومطايبة،وفكاهة"[٥].

وبعض العلماء ألف الكتب بإشارة من سلاطين بني نصر ووزراء دولتهم، ومنهم من يهدي كتبه إليهم، طلباً لنوالهم،وقربهم،ومحبة لهم[٦]. لأعيانها،وعلمائه

(١) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٤٣٠.
(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٨٤.
(٣) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٢٢-٢٢٣.
(٤) انظر: المرجع السابق،٣/ ٦٨. و ٣/ ٧٠. وانظر: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، أ.د. عبد الواحد ذنون طه، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى٢٠٠٤م، ص١٦٥.
(٥) المرجع السابق،٣/ ٤٩٩.
(٦) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٣/ ٢٣٧.

ا،وأدبائها،وشعرائها،وعبادها، مما يعكس الرخاء العلمي الذي كانت تعيشه مملكة غرناطة في ذلك الوقت.

وما يبن لنا،ونحن نقرأ في تراجم العلماء في كتاب الإحاطة اهتمام ابن الخطيب بذكر شيوخ مثلاً كل فقيه،ومقرئ،وأديب،وطبيب، وما هي المؤلفات التي خلفها، كما يبين حب العديد منهم للتأليف،والإكثار منه حيث بلغ لدى بعضهم ثلاثون تأليفاً في فنونٍ مختلفة[١].

وكانت الأحباس قائمة لطلاب العلم، بل ساهم بعض العلماء في أحباس لطلاب العلم، وحبس عليهم كتبه، وبعضهم كان يحبسها على الجامع[٢].

وكان بعض أهلها يُعرف بأنه جماع للكتب، مقتنياً لها، مغالياً فيها، أو أن لديه كتباً كثيرة، وجمع منها مالم يكن عن مَلِك، ولا شك أن الكتب من أجل الوسائل لبلوغ الرئاسة في العلم[٣].

وكان بعض وزرائها يطلب من علمائها وأعلامها أن يجيزوا ابنه كما فعل الوزير ابن الخطيب حين طلب من العالم الأديب أحمد بن إبراهيم بن صفوان أن يجيزَ لابنه عبد الله[٤].

بل كان العديد ممن تقلد الوزارة بغرناطة من أهل العلم،والمكانة الرفيعة فيها، ولم تشغلهم الوزارة عن التأليف حتى قال ابن الخطيب عن أحدهم: " وأحيا معالم الأدب، ورفع راية الحديث، والتحديث، ولم تُشغله السياسة عن النظر، ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع، والإفراط في اقتناء الكتب، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها"[٥].

(١) انظر: كمثال على ذلك -وهو كثير- ترجمته لأحمد بن عبد النور بن راشد في الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ١٩٧-١٩٨. وانظر: ٣/٩٣ في ترجمة محمد بن عبدالله الفهري.
(٢) انظر: الإحاطة فيأ غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٣/ ٧٩. وانظر: ٣/٨١.
(٣) انظر: المرجع السابق، ١/ ٢٠٨. وانظر: ١/٢٥٩.
(٤) المرجع السابق،١/ ٢٢٨. وانظر: ١/٢٢١.
(٥) المرجع السابق،٢/ ٤٤٦.

ومن أشهر العلوم التي استفاضت في الأندلس علوم اللغة العربية،والقراءات، والهندسة والفقه، فكان المشتغلون بها، المشهورون بها كثيرين، وبعضهم قيل عنه بأنه: "كان عاكفاً عمره على تحقيق اللغة"(١)، وبعضهم قال عنه ابن الخطيب: " سيبويه العصر"(٢)، وبعضهم يُشتهر بالتعصب لسيبويه، ويخطئ من يخطئه(٣)، كما كان لعلم الحديث، والتاريخ الأعلام المنشغلون به.

التواصل العلمي بين غرناطة والمشرق:

ارتبطت الأندلس بالمشرق منذ زمن الفتح ارتباطاً علميا وثقافياً أبى على الفكاك في العصر الإسلامي،وكان الحج، وطلب العلم، والاستزادة فيه من علماء المشرق في حواضر الإسلام حينئذ كمصر، والعراق،والشام، وغيرها ممن طاف بها علماء الأندلس، حتى وصف بعضهم بأنه جوالٌ بالبلاد المشرقية والغربية، وعادوا منها إلى غرناطة برواية واسعة، وكتب غريبة، وحتى ابن الخطيب نفسه أرسل بعض كتبه إلى مصر وقفاً(٤).

كما كانت المراسلات بين العلماء،والأعلام دليلاً على الحراك العلمي الذي كانت تنعم به الأندلس،وما جاورها من البلاد الإسلامية، فكانت المراسلات بين ابن الخطيب وابن خلدون، ومراسلات ابن خلدون التي أثبتها في كتابه الإحاطة مما كانت بينه وبين العديد من العلماء شاهدة على سعة العلم، وبلوغ المرتبة العالية في البلاغة، والكتابة، والأدب الرفيع بينهم(٥).

كما حمل بعضهم من علوم الشرق في اللغة،والأدب، والمنطق، والحكمة، فأفرغها بعد رحلته في غرناطة، فكان مقصد الأفذاذ، والعلماء،والشعراء، وأنعم بها أهلها(٦).

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٣/ ٢٧.
(٢) المرجع السابق،٣/ ٣٥.
(٣) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٣/ ٧٦.
(٤) انظر: المرجع السابق،١/ ٢١٠-٢١١. وانظر: ٢١٣/١. وانظر: انتقال العلوم العربية من الشرق إلى الغرب وتأثيرها في أوروبا، د. علي دياب، من أعمال: ندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث، طبعة: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الطبعة الأولى١٤١٧هـ ص١١٤.
(٥) انظر: على سبيل المثال: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٢٥٣-٢٥٩.
(٦) انظر: الإحاطة في أ غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٤٥٤-٤٥٥.

وكان للبعض عكس هذه الصورة فبعد أن أقرأ ببلده غرناطة، وعلّم بها، رحل إلى الشرق للحج، وجلس في مجالس الإقراء،والعلم بها، ثم أقام بها إلى أن توفي[١].

ومن علماء غرناطة من نشر علمه في حواضر المشرق كالقاهرة، وأشاد لمشايخه من أهل غرناطة ذكراً كبيراً هناك[٢].

التواصل بين بين غرناطة والمغرب الإسلامي:

لإعلام المغرب الإسلامي الأثر الواضح على الثقافة الأندلسية، وكان من متأخري العلماء الذي زار غرناطة ، واتصل بملوكها، بل وكان سفيراً لهم مع ابن الخطيب إلى بعض ملوك النصارى العالم المؤرخ ابن خلدون، وكانت بينه ، وبين ابن الخطيب مراسلات، فقد دخل غرناطة عام: ٧٦٣هـ، وارتحل عنها سنة: ٧٦٦، وكتب عن ابن الخطيب ترجمة وافية في كتابه العبر، وصفه فيها بأنه :" شاعر الأندلس ، والمغرب في عصره"[٣] وأنه " كان في اللسان ملكة لا تدرك"[٤] ويقول" وكان الوزير ابن الخطيب آيةً من آيات الله في النظم والنصر، والمعارف، والأدب، لا يسجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هداه"[٥].

كما درّس بعض الوزراء الذين كان لهم شأن في الأندلس وأحداثها على كثير من أعلام المغرب – من أمثال ابن زمرك الوزير المشهور المعاصر لابن الخطيب– في فاس وغيرها[٦].

ومن جميل صور التواصل العلمي بين العُدوة ، ومملكة غرناطة ماحصل من تواصل لأسرة مغربية بعلماء الأندلس، وأهل اللغة،التاريخ بها، وهم من العائلات العلمية المشهورة، كما حدث لمحمد بن عياض بن محمد بن عياض من ابن القاضي

(١) المرجع السابق،٢/ ٢٣٠-٢٣٤. وانظر: ٢/ ٤٣٤.
(٢) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٣/ ٤٤.
(٣) كتاب العبر، لابن خلدون، ٧/ ٤٣٤. وانظر مقدمة محمد عنان لكتاب الإحاطة، ١/ ٤٨.
(٤) انظر: كتاب العبر، لابن خلدون، ٧/ ٤٣٤.
(٥) انظر: كتاب العبر، لابن خلدون، ٧/ ٤٩٦. وانظر مقدمة محمد عنان لكتاب الإحاطة، ١/ ٣٦.
(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٢/ ٣٠٣.

عياض وحفيده الذي توفي في غرناطة[١].

وكان ابن الخطيب ممن جلس في المغرب،وأقرأ أهلها، كما ترجم للعديد من أعيان غرناطة الذي طلبوا العلم في المغرب وكان يذكر ذلك بقوله: " رحل إلى العُدوة"[٢].

كما كان بعض أعلام غرناطة في المقابل من أهل فاس أو تلمسان،وتونس وغيرها من بلدات المغرب ممن وفدوا على غرناطة، وأفادوا فيها بالعلوم والفنون التي حملوها، واستقروا بها[٣].

(١) المرجع السابق،٢/ ٢٢٦-٢٣٠.
(٢) المرجع السابق،١/٢٢٢.
(٣) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٢٧٢.

المبحث الثاني

التحديات الثقافية التي واجهتها مملكة غرناطة

واجهت مملكة غرناطة العديد من التحديات الكبيرة التي كاد بعضها أن يزيل حكم المسلمين بها في بعض الفترات التي شهدها علامتنا ابن الخطيب، وسنأتي على ذكر هذه التحديات فيما يلي:

أولاً: التحديات الداخلية:

١/ فقدان الاستقرار السياسي في الأسرة الملكية في غرناطة:

العديد من ملوك غرناطة ذو والشرف،والقوة،والمكانة ماتوا عن طريق التوثب، والخيانة لهم، أو نزعوا من ملكهم في غفلة من أمرهم،وأمن من قرابتهم،وأهل بيتهم، مما أثر على المشهد السياسي في غرناطة، وأحاطه بغيوم سوداء لم تسلم منه غرناطة إلى آخر عهدها.

وقد شهد ابن الخطيب على ذلك في عهد الملك القوي أبي الوليد الذي قتل غيلةعام: ٧٢٥هـ، والغني بالله الذي توثب عليه أخوه،ونزعه من سلطانه،ولم يرجع إليه إلا بعد ثلاث سنين قضاها في منفاه بالمغرب، وعاد له ملكه بمساعدة من ملك المغرب.

ولم تكن غرناطة،وأهلها بسالمين من شرور تقلبات الحكم فقد كان العديد منهم يشاركون في ذلك، وبعض الفتن تثور بسبب شيوخ غرناطة، أو بعض الأجناد فيها[١].

ولم تنعم غرناطة باستقرار دائم حتى في دواخلها، فكانت الثورات على سلاطينها داخل جنبات المملكة، والدعوة لسلطان غير سلطانها مما شكته هذه المملكة، وساهم فيما بعد في سرعة زوالها وسقوطها[٢].

(١) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٣٨٦.
(٢) نظر: االمرجع السابق،٣/ ٣٣٩-٣٤٠.

وكان كثيراً ما يختم ابن الخطيب تراجم أولئك الملوك الذين حكموا في أرض الأندلس بمثل قوله عن أحدهم: " وآثاره بعد انقباض دولته تشهد بما تأثل من مُلك وسَلف من الدولة، والدار الآخرة خير لمن اتقى"(١). وقوله: " والملك لله الذي لا تزن الدنيا جناح بعوضة عنده"(٢). وقوله: " والبقاء الخُلص لله وحده"(٣).

٢/ ندرة الاهتمام ببعض العلوم والمعارف:

فكما كان سوق علوم العربية، والطب، والرياضات ذات مكانة في المجاميع العلمية بغرناطة، إلا أن بعض العلوم التي تتصل بالفلسفة من العلوم التي يمقت بها على أصحابها أشد المقت في غرناطة(٤)، كما ظهرت في الأندلس بدايات عمل التلخيص للكتب،وقد اعتبرها بن الخطيب بلاءً، فقال عمن اهتم به: " وابتُلي باختصار كتب الناس"(٥)، فكأنه كان معيباً لديه لما فيه من التجرؤ على كتاب ليس له، مع ما فيه من التوقف عن الإبداع في التأليف.

٣/ قلة الاتصال إلى الشرق الإسلامي:

فمع ما أشرنا إليه من أثر التواصل المعرفي بين المغرب،والمشرق أو الأندلس،وبلاد المغرب من أثر متميز على حضارة غرناطة إلا أن تلك الرحلات كانت قليلة العدد، فقد برز فيها بعض العلماء،والأدباء، ولم تكن حركة علمية ذات أثر على الحراك العلمي بغرناطة.

ولعل ما كانت تنعم به غرناطة من الطبيعة،والمناخ، والنعمة، ثم ما كانت تتواصل به من الجهد في مدافعة الأعداء من النصارى المتوثبين عليها لم يدع لأهلها مستراحاً في التنقل والتواصل الكبير بينها،وبين الأقطار الإسلامية الأخرى.

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٢٩٨/١.
(٢) المرجع السابق،١/ ٣١٨.
(٣) المرجع السابق،١/ ٣٨٧.
(٤) انظر: الإحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٢٧٢.
(٥) الإحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٢/ ٣٤٢.

ثانياً التحديات الخارجية:

استمرت غرناطة مملكة ذات حضارة وازدهار سنين طويلة، لكن ذلك لا يُغفل جانب معاناتها الكبير من ممالك النصارى التي تحيط بها، وتنتظر الفرص المؤاتية للتوثب عليها في شرقها وغربها، وكأنها صفحة من الزمان لا تكاد تمكث فيها أوقات السكون والاطمئنان والسعادة التامة إلا فترات قليلة، ولعلنا نجمل أبرز التحديات الخارجية التي واجهتها غرناطة فيما يلي:

١/ الاستفزاز،والتوثب على الأندلس من قبل ممالك النصارى المحيطة بغرناطة:

حيث كان ابن الخطيب كثيراً ما يدعو لغرناطة بالحظ،والسلامة من صولات الأعداء الكافرين في كتابه في مواضع كثيرة حيث قال في أول وصفه لغرناطة: "وقاها الله مضرة السنين، ودفع عنها عُباب القوم الظالمين، وعُدوان الكافرين"(١).

وكانت بلاد غرناطة تنعت بأنها أرض الرباط ، والجهاد، ولم تتوقف المعارك والمناوشات بينها وبين العدو في مشرق غرناطة ومغربها، وتطورت آلة الحرب لدى المسلمين ، ومن ذلك ما ذكره ابن الخطيب لآلة هي أقرب للمدافع اليوم، حيث قال عن أحد المشاهد التي خاضها السلطان أبو الوليد إسماعيل بن نصر سنة٧٢٤ه: "ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة حديدية محماة طاق البرج المنيع من معقله، فاندفعت يتطاير شرارها، واستقرت بين محصورية، فعاثت عياث الصواعق السماوية، فألقى الله الرعب في قلوبهم، وأتوا بأيديهم، ونزلوا قسراً على حكمه"(٢).

ولم تكن ممالك النصارى قوة ضعيفة آنذاك، بل كانت ممالك متحفزة على القوى التي تليها، تقاتل بقوة وشدة، وكانت الحروب بينها،وبين المسلمين سجالاً، ولم يسلم من شؤمهم المسلمون إلا في أعوام قلائل من الهدنة، والصلح.

وكان للعلماء، والصالحين مواقف مشهودة في الحث على الجهاد، وأمر سلاطين غرناطة والعُدوة به ضد النصارى، وحث الناس عليه، والموت في ساحات المعارك أو مواطن الحصار(٣).

(١) المرجع السابق، ١/ ١٢٤.
(٢) الإحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ١/ ٣٩٠.
(٣) المرجع السابق،٣/ ٢٤٩.

فخاضت مملكة غرناطة مع تلك القوى المعارك المشهورة، فكانت الحرب بينهم سجالاً، ومن أشهر المعارك والوقائع المؤلمة تلك التي فقدت فيها غرناطة مدينة طريف والجزيرة الخضراء، وانهزم فيها الجيش الغرناطي والمريني عام ٧٤١هـ بقيادة أبي الحسن المريني، والسلطان يوسف أبي الحجاج النصري، وكانت محنةً عظيمةً للأندلس،والمغرب و، فُقد فيها العديد من العلماء وأهل الشرف من أهل الأندلس، ومنهم والد ابن الخطيب وأخوه الأكبر(١).

فكان الاستعداد للمنازلة للقتال مما يتدرب عليه صغار القوم في غرناطة منذ النشأة، ويحُث عليه الكبار، ومن الرسائل التي أرسلها سلطان ابن الخطيب الغني بالله يحث فيها المسلمين إلى الاستعداد ، وعدم الغفلة لمهاجمة الأعداء فكان مما قاله: " وإلى متى نسيان اللجأ إلى الولي النصير وقد تداعت الصلبان مجلبة عليكم، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم..أعدوا الخيل وارتبطوها، وروضوا النفوس على الشهادة واغتبطوها، فمن خاف الموت رضي بالدنية، واقتنوا السلاح والعدة ، واستميتوا من دون أبنائكم، وكونوا كالبنيان المرصوص لحملات العدو النازل بفنائكم.."(٢).

٢/ التوجس المستمر من العلاقة السياسية بدول المغرب:

فلم تكن العلاقة بين غرناطة،وجارتها القوية الرؤوم عليها تنعم بالرخاء والوئام، بل صاحبها في العديد من مراحلها الفتور والتوجس، وفي أحيان أخرى التقاطع والتنابذ، وفي آخر عهدها الضعف،وعدم القدرة على التواصل.

وكان سلطان غرناطة يتلمس الأخبار عن سلاطين بني مرين،ومقاصدهم من إعانة الجيش الغرناطي، ووصل الحال بهإلى النيل من كل من بلغه أن أغرى أحد سلاطين المغرب على ملكهم، وإن كان ذلك على سبيل الظنة(٣).

(١) انظر: الإحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٢/ ١٨٠. وانظر: ٣/ ٢٣. وانظر: ٤/ ٣٢٢ في ترجمة السلطان أبي الحجاج يوسف.
(٢) الإحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٢/ ٦٠-٦١.
(٣) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ٣/ ٢٥١.

وكل ذلك أورث مشهداً متقلباً في العلاقات بين البلدين، ونفوراً من الاستعانة في المضائق ناهيك عن أوقات الرخاء، والاستقرار ببعضهما، مما وفر للعدو المتربص بها فرصاً عديدة للاستيلاء على كثير من القصاب،والبلدات المجاورة له من المملكة حتى تمّ له الأمر بالقضاء على المملكة كلها، واستسلام غرناطة.

وإن كانت بلاد الأندلس قد أصابتها داء التفرق،والتشرذم، فقد أصاب المغرب بعضاً من ذلك، وتأثرت قوة الأندلس بسبب تفرق أبناء البيت الواحد في المغرب، وتشرذمهم(١).

وأخيراً أحمد الله على ما تيسر جمعه عن واقع مملكة غرناطة الثقافي،فرحم الله العالم الجهبذ الأديب ابن الخطيب،وأجزل له العطايا، و- صلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) انظر: المرجع السابق،٢/ ٤١.

خاتمـــة

الحمد لله على ما يسر من البيان عن واقع مملكة غرناطة الثقافي من خلال كتاب الإحاطة، وأهم النتائج التي انتهيت إليها ما يلي:

١/ تعتبر مملكة غرناطة من أعظم المدن الشاهدة على رقي حضارة المسلمين،وتميزهم الحضاري.

٢/ ما تحلى به من المكانة الكبيرة للعلامة لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني المعروف بابن الخطيب، وأنه من أعظم أعلام الأندلس.

٣/ يُعتبر كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة من أجل كتب ابن الخطيب وأشهرها، وله صلة بمسماه فقد حاول الاستقصاء عن كل من دخل بلدته غرناطة من أوائل زمن الفتح حتى عصره.

٤/ يعتبر كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة مرجعاً ثقافياً،وأدبياً، وتاريخياً عن تلك المملكة.

٥/ كان لموقع غرناطة الجغرافي، وما تميزت به من المناخ المعتدل، والأرض الطيبة، الأثر في استقرار كثير من الأسر العلمية بها.

٦/ مما يدل على عظمة الحضارة التي تنعم بها غرناطة ما يدلنا عليه موسوعة ابن الخطيب الإحاطة، والتي ترجم فيها لقرابة الخمسمائة لأعيانها،وعلمائها،وأدبائها، وشعرائها وعبادها، مما يعكس الرخاء العلمي الذي كانت تعيشه مملكة غرناطة في ذلك الوقت.

٧/ عانت مملكة غرناطة من تحديات داخلية، وخارجية كان من أبرزها فقدان الاستقرار لنظامها السياسي، والتوثب المستمر على أراضيها من لدن جيرانها النصارى.

أهم التوصيات:

١/ الاهتمام بإبراز الحضارة الأندلسية عموماً، وغرناطة على وجه الخصوص إذ هي شاهد عيان على الرقي الحضاري الإسلامي.

٢/ إقامة المؤتمرات التي تكشف عن العطاء العلمي، والأدبي الذي قدمه العلامة لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله – وغيرها من علماء الأندلس.

المصادر المراجع

أولاً : المصادر :

- القرآن الكريم.

ثانياً: المراجع:

١. ابن الخطيب في كتابة الترجمة، عبد الله الترغي المرابط، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان – جامعة عبد الملك السعدي، العدد ٢–١٩٨٧م.

٢. الإحاطة في أخبار غرناطة،لسان الدين ابن الخطيب،ر تحقيق: لمحمد بن عبد الله عنان، طبعة مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ

٣. انتقال العلوم العربية من الشرق إلى الغرب وتأثيرها في أوروبا، د. علي دياب، من أعمال: ندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث، طبعة: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الطبعة الأولى١٤١٧هـ

٤. التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، د. عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، الطبعة الثامنة١٤٣٥هـ.

٥. دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، أ.د. عبدالواحد ذنون طه، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى٢٠٠٤م.

٦. دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، أ.د. عبدالواحد ذنون طه، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى٢٠٠٤م.

٧. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، للإمام: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، دار الفكر، الطبعة: الثانية١٤٠٨ هـ.

٨. صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحِميرى، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الثانية١٤٠٨ هـ.

٩. لسان الدين بن الخطيب الناقد في كتاب الإحاطة، مجلة المورد العدد الثالث لسنة ١٩٩٩م.
١٠. مصادر في تاريخ المغرب والأندس، أ.د. عبدالواحد ذنون طه، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى٢٠١١م.
١١. مصادر في تاريخ المغرب والأندس، أ.د. عبدالواحد ذنون طه، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى٢٠١١م.
١٢. معجم البلدان، لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر،الطبعة: الثانية،١٩٩٥م.
١٣. المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، عبدة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة، الطبعة الأولى١٤١٨هـ.
١٤. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، دار صادر- بيروت، الطبعة الأولى١٩٩١م.